«صخرة البداية» لماجد السامرائي:
مغامرة الموت الفاعل

مصطفى الكيلاني

كتاب ثانٍ لماجد السامرّائي بعد كتاب الماء والنار يستقطب الأجناس الأدبية، يدمّر الحدود، يهلك المراجع، وإذا النصّ ضَرْب من الانفقاد يدعو القارىء إلى أن يتخلّص منذ البدء من مرجعية الجنس الأدبيّ الواحد والرأي الواحد.

فماذا يمكن لـ «أنا» ـ الراوي في نصّ صخرة البداية أن تفعل وكلّ الأوراق مكشوفة: «أنت إمّا قاتل أو قتيل»[1]؟

وعند الالتجاء إلى اللغة لا ينفذ الراوي إلى العالم الآخر المُرْتَجى بل يكتفي بتطليق «عالمهم» إلى حين فيتحول القتل من هواية النسف ومحاصرة الذاكرة والرؤيا إلى موتٍ فاعل إذ «الكلمة وسيلة قتل وقتال[2]» من نوع خاصّ تخترق كثافة الوجود وتحتفر في تراكم طبقاته أنفاقاً.. ويتبدى النصّ معابر متداخلة تندفع صوب مخرج لا يتحقق في ظاهر البناء، وإذا المعابر تفضي إلى معابر أخرى وشعيرات الذاكرة تدق في بحر سوادٍ لا يتراءى منه إلا البريق الخافت سرعان ما يشع وسرعان ما تكتنفه الأقبية العميقة.. كان على أنا ـ الراوي أن تلتزم «بالانحياز للذات» في زمنٍ ترسب في وجهين: «قاتل أو قتيل». كيف تجتزىء الذات ذاتها فراراً من رعب الهلاك؟ إن الأنا المفتوحة على الذات عاشقة للموت عشقها للحياة أصابتها النكسة تلو النكسة وهي لذلك تعلّمت أن تفصل بين الموت والهلاك، فرفضت الخضوع للموت الجماعي الذي هو هلاك قاتل والتزمت بالسير في درب الموت الفردي تحدد غايته وترفض به السبل المسطورة

(١) ماجد السامرّائي: صخرة البداية ـ الأردن ـ دار الكرمل للنشر والتوزيع ١٩٨٨، ص: ٨.

(٢) السابق ـ ص: ٧.

كما أبو هريرة في حدّث أبو هريرة قال.. لمحمود المسعدي[3]، فبديهي أن تغرق الذات في نرجسية مدهشة عندما يحدث انشطارها وتكون موضوعاً يتموضع ذاتاً متأملةً ويتحول الشق الثاني منها إلى فاعل يرتد إلى مركزه المتوتر كلما تعمقت الرؤيا واشتدت غرابة المرئي واتسعت المسافة الفاصلة بين المشاهِد والمشاهَد.. وتَعِنّ ذات الراوي كهفاً ينغلق لينفتح على مفازة ليل وجودي بثغرتين: الخوف الذي يربط «الأنا» بمحيطها الاجتماعي والحضاري وهي ثغرة تعدم الإرادة وتهدد كثافة الذات وتمركزها بالاندثار، وثغرة الحب حيث اللذة والموت يتعانقان كي يتمظهر الموجود موجوداً فاعلاً... وحينما يشتد الخوف وتنفتح بؤرته لتستقطب الحركة في زمن الحظر وكبت الجسد والعقل والنفس لا يبقى للذات إثباتاً لكينونتها المهددة بالزوال إلا أن تلوذ بذكرى الرحم الأولى لتستعيد بعنف اللحظة أنوثة الماء، ولكن الحاضر بقلاع فضائه المتراصّ يمنع الذاكرة من تخطي الكثافة إلى شفافية التمثل: «يستقبلك حنان الأم فتلتقيه، هو الآخر، عند معابر الحلم، يتحداك الزمن فتنسحب» يغتال أحلامك فتصمت، يفتش ذاكرتك فتستسلم..»[4] وترتد النرجسية إلى صحو الذات بالبكاء[5]، وحينما يصحو الطفل ـ دفين الزمن الأول ـ في صدر الكهل تضطرب النفس لأن الطفولة هي أيضاً سبيل مقطوعة تفضي إلى الكهف من جديد، ويترصّد رعب «الآن» ذاكرة من يريد الانفلات من سطح الوجود المعطل، ويدور النصّ بمجالاته السرديّة وحواراته الداخليّة في فضاء مغلق، يتوهّم القدرة على

(٣) محمود المسعدي: حدّث أبو هريرة قال ـ تونس ـ الدار التونسية للنشر، ١٩٧٣.

(٤) صخرة البداية ـ ص: ٧.

(٥) السابق ـ ص: ٧.

تعقّب السبل وتخطّي تداخلاتها، ولكنّ القهر أعنف في الارتداد من دفق الحركة، وليس «للأنا» في تشرذمها بين السبل ما يجعلها قادرة على مواجهة رياحه العاتية..

ماذا بقي للذات أن تفعل وهي سجينة كهفها محكومةً بالعجز في دائرة الهلاك؟ أن تستعيد الماضي؟! ولكنّ هذا الزمن لا يخلو أيضاً من طاعون الحظر: «وحين نقفز بالتاريخ إلى الوراء نجد الكثير ممّن دفنوا أسئلتهم بالصمت قد ماتوا ـ وهم يتأهبون للكلام ـ، ولكنّهم لم يفعلوا.. لم يتكلموا..»[6].

أن تلتجىء إلى الحلم؟ السؤال؟ التخيّل؟ المجاز؟ لقد أفضت دوّامة هذا العصر بـ «أنا» ـ الراوي متشكّلة في وجوه مختلفة إلى ثابت واحد يجعل الحياة تَقْبَلَ بالرغم من قوى المنع المختلفة، وهو أن تسير في درب الوجود بفرح الموت الفاعل شأن «الصديق» الذي «إذا مشى عاشقاً» تبدو الحياة «أمامه وكأنها سرب من الفرح، أما إذا اشتعل الغضب في صَدْرة فإنّه يَتدفّع مثل نار في بيدر، وكان يتدفّق عطاء، فلا يُعْرَف الحصاد منه مَوْسِماً..»[7]. وَتغيض سبيل التذكّر في زمن يدور على نفسه كالصخرة تنغلق بشراسة اللحظة المُعطّلة، ولا يبقى للصديق إلّا أنْ يحزن دون يأس، فتنفتح ذاكرة أنا ـ الراوي على «الفتى الذي يحمل طوق الياسمين»، يلهج بالحكمة تلو الحكمة في المواقف الصعبة، فهو صامد كالرمح في وجه الزمن الفاسد، يحارب من أجل الكلمة ويتحدّى الرداءة وَلا يستسلم لِقُوَى الحَظْر، إلّا أنّه «كالصديق» يُدْفع إلى الحزن وتصطدم الذات بمحيطها ليستقطب الكهف إنْسَانَه في كلّ الحالات وترتدّ الرغبة إلى صَحْرَاء الهلاك.. إنّ «البكاء» و«الحزن» والتشرّد حتميّات واقع مسكون بالخوف: «كان يروي لنا أنّه يرى كلّ مَا حَوْله يرتجف: من الشجر إلى البشر»[8]. وإذا كان الخوف في معجم «الرجولة» القديم نقيصَة لا تُغْتَفر والبكاء نزولاً من علياء الذكورة إلى قاع الأنوثة والطفولة مثل الجنون ترهّل عقل فإنّ هذه الدوالّ في سياق هذا العصر «رجولة» أخرى و«ذكورة» تعانق رحمها الأولى وَتُجل طفولتها التي بها تتفرّد وَعْياً يستكنه الأشياء بحميمية، بعيداً عن الوسائط التي تقضي على اللغة بأداتية الانفصال عن قداسة تمثّل الحياة.. وفي مقام هذه الطفولة الممتدّة يتسامق «الفتى الذي يحمل طوق الياسمين» في دائرة الرعب لأنّه يُبْصِرُ العالم بقلبه و«يحمل التعب الخلّاق في صدره»[9] وتتكثف صور هذا الفتى على لسان «الشيخ» ورواة آخرين فإذا هو إشراقة الوعي تخترق التكرار بالحكمة والحلم، ويُقرّ «الفتى» بعزائمه المتعاقبة من غير أن يستسلم لأنّ القوة التي بها يُكابِرُ أقوى من الرعب وَمُتْرفيه، وَلا تنفصل ذات الفتى عن الآخرين، فهو من جيل فتح عَيْنَيْه على قرص شمس باهت يزوّق السماء وَلا يُرْسِل أشعّته، وليس بإمكانه أن ينظر إلى العالم بمثاليّة من سبقوه: «وضعونا في لجّة الحلم ومضوا.. كانت حياتهم مثالية في الإيمان.. مثالية في الصفاء ومثالية في الشقاء أيضاً حتّى لنحسبها من غير هذا العالم الذي يقترب منك بالمخالب والأنياب..»[10].

كيف الخروج من دوّامة السبل المُعَطّلة؟

وكأن هذا اللغز المتكرّر هو الخيط الوحيد الرابط بين تمفصلات النصّ المُغْلَق.. إنّها المتاهة تجعل الحياة والموت في خطّ واحد، وتنزل بالرعب إلى آخر المنحدر وتصوّب النظر إلى فوق فلا تُبصر إلّا الليل وَمَا يُشبه مَعَابر الذاكرة ترتعش بقوّة من يريد الانفلات من سجن مؤبّد.. وليس غريباً أنْ تلوذ الـ «أنا» بشعار الأمل ومتكرّرات من أهمّها حلم الشجرة قَدْ يُعَلِّلُ بحاجة النفس إلى الانغراس في أرض زلقة، وكأنّ الشجرة صورة للقلب ينغرس بجذوره في قاع الوجود ليشحن الموجود بقوة الوعي الذي به يفرّق بَعْضاً من كثافة ذلك الوجود وينسف الحدود بين الذات الواعية والأشياء، فتعود اللغة إلى شعريّتها البدائيّة وينطق العالم بما فيه، وبذلك تتحدّى «الشجرة» بحر الوجود اللّامتناهي بِمَا لها في وعي الإنسان من قدرة على التخيّل يزرع في رحم ذلك الوجود معنى إنسانيّاً مُتَجَدّداً.

وليس غريباً أيضاً أن يتكرّر موضوع الطفولة لأنّ «الفتى» ـ وقد أعلن العصيان في وجه الزمن العقيم ـ مُلْزَم بأنْ يدفع الحركة في اتجاه الماضي أو يدير القارب صَوْب الآتي المجهول، وفي الحالتَيْن تكون الطفولة عَوْداً إلى الماضي ونزوعاً إلى المستقبل، تُحْيي واقعاً تَمْضيّ وتسعى إلى تأسيس واقع آخر لا يمكن رسم معالمه بذاكرة مُجَزّأة ووجدان تتجاذبه قوى مُتنازعة. ويهتزّ المكان الذي يتحرّك فيه وعي الوجود، وإذا «المدينة» مدينتان: مدينة تخافها (تخاف أن تبتلعك، أن تضيّعك) ومدينة تخاف عليها (مدينة تعيش في قلب المجهول المعلوم)[11]. كيف الانفلات من الازدواجيّة في الزمان والمكان؟ كيف الخلاص من سجن الغياب؟

فهذه «الحبيبة» تبحث عنه، تقترب منه وهو البعيد عنها أو المُبْعَد، وهذا الحبّ الذي كان يربط بينهما في كيان واحد أصبح مسكوناً بالغربة....

إنّ «الحبيبة» هي الملاذ الوحيد، حاضرة غائبة، واقعٌ وإمكانُ واقعٍ: «قلت: أهرب إليْكِ.. لاَ مَرْفأ لي سواك، وَلاَ بَيْتَ يُؤْويني سوى هذا القلب، وَلا عالم لي غير عَيْنَيْك..»[12].

تلك هي «الحبيبة»، «الأميرة» الصامدة في وجه الزمن، أنوثة صادقة تمسح عن جبين «الفتى» أتعاب القرون وتنطقه بالحكمة

(٦) السابق ـ ص: ٨.
(٧) السابق ـ ص: ١٠.
(٨) السابق ـ ص: ١٨.
(٩) السابق ـ ص: ١٨.
(١٠) السابق ـ ص: ٢٩.
(١١) السابق ـ ص: ٥١.
(١٢) السابق ـ ص: ٦٢.

وَتشحنه صَبْراً وتحدّياً وإصراراً على مواصلة السير في الدروب الملتوية، وإذا صِفْر البداية تجاوز لآليّة الاندفاع والارتداد وقطع مع السُبل الوَهميّة وتحرّر نسبيّ من نرجسيّة فَرَضتها قوى المنع لِتدْرَأ بِهَا الذات هجمات الآخرين. . لقد اختار «الفتى» معابر الأنوثة يتيه فيها بعيداً عن السبيل الواحدة والفكرة الواحدة وآثر الموت الفرديّ - يُبْدِعُ به فَرَحَه - على الهلاك الجماعي، وَفضّل حضارة الغد على شعارات تُرْفع لِتُخْفِيَ عَجْزاً في حجم الذاكرة المقبورة.

ولكن، كيف تكون البداية بدايات، ويُبْعث جيل التأسيس الحقّ؟ كيف يُوَدّع «الفتى» إلى الأبد مَفازة الوثوق ويحقّق عَدَمه الفاعل؟

(تونس)

فصول

محمد الغزي

نحو مُنْحَدَرِ الشَّمْسِ تمضي القوارِبُ مُثْقلةً بالطّيوبِ
ومُثْقَلةً بالشّموسِ تَسِيرُ خيولُ القبائِلِ
مَاذَا سيبْقَى على كَفِّهِ الطّفْل؟
لا شَمْسَ في آخِرِ اللّيلِ، لا نخْلَةٌ في المَسَالِكِ
كُلُّ حِجَارتِهِ أَوْغلَتْ في ضَبَابِ الخَرِيفِ،
وَجدَّتْ ينابِيعُهُ في الرّحيلْ.
يَا لَهَذَا الصَّبِي!
من سَيرْقى نوافِذَهُ إنْ سَجَا اللّيلُ؟
مَنْ سَيُسيّجُ بالجَمْرِ حُجْرَتَهُ؟
من سَيمْلأُ رَاحَتَهُ بالمصابِيحِ؟
كلّ الحَدَائِقِ خارِجَةٌ
خَارِجُ زمَّجُ السَمَاءِ
هَذِي حِجَارتُهُ أوغلَتْ في ضَبَابِ الخريف
وَجَدَّتْ يَنَابِيعُهُ في الرّحِيلْ.
من إذَنْ بَعْدَها سَوْف يَأْويهِ في اللّيلَةِ البارِدَهْ؟
من تُرَى بَعْدها
سوف يَأْتِيهِ بالشّمس واللّيلِ
في رَاحَةٍ واحدَهْ؟!!